تارة الى صفة الجان وتارة الى صفة الثعبان او على سبيل الاستظهار في الحجة وان الحال لو
كانت واحدة على ما ظن لم يكن بين الآيتين تناقض وهذا الوجه احسن ما تكلفوا
الجواب لاجله لان الاولين لا يكونان الا عن غلط او عن غفلة قد ذكروا وجهين يزول
بكل واحد منهما الشبهة في تأويلها احدهما انه تعالى انما شبهها بالثعبان في احدى الآيتين
لعظم خلقها وكبر جسمها وهول منظرها وشبهها في الآية الاخرى بالجان لسرعة حركتها
ونشاطها وخفتها فاجتمع لها مع انها في جسم الثعبان وكبر خلقه نشاط الجان
وسرعة حركته وهذا ابهر في باب الاعجاز وابلغ في خرق العادة ولا تناقض معه بين الآيتين
وليس يجب اذا شبهها بالثعبان ان يكون لها جميع صفات الثعبان ولا اذا
شبهها بالجان ان يكون لها جميع صفاته فقد قال الله تعالى ويطاف عليهم بآنية
من فضة واكواب كانت قواريرا قواريرا ولم يرد تعالى ان الفضة قوارير على الحقيقة
وانما وصفها بذلك لانه اجتمع لها صفاء القوارير وشفوفها ورقتها مع انها من
فضة وقد تشبه العرب الشيء بغيره في بعض الوجوه فيشبهون المرأة بالظبية
وبالبقرة ونحن نعلم ان في الظباء والبقر من الصفات ما لا تستحسن ان تكون في النساء
وانما وقع التشبيه في صفة دون صفة ومن وجه دون آخر والجواب الثاني
انه تعالى لم يرد بذكر الجان في الآية الاخرى الحية وانما اراد احد الجن فكانه تعالى اخبر بان
العصا صارت ثعبانا في الخلقة وعظم الجسم وكانت مع ذلك كاحد الجن في هول المنظر
وافزاعها لمن شاهدها ولهذا قال تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم
يعقب ويمكن في الآية تأويل آخر استخرجناه ان لم يزد على الوجهين لم ينقص عنهما
والوجه في تكلفنا له ما بيناه في الاستظهار في الحجة وان التناقض الذي توهم زايل
على كل حال وهو ان العصا لما انقلبت حية صارت اولا بصفة الجان وعلى صورته
ثم صارت بصفة الثعبان على تدريج ولم تصر كذلك ضربة واحدة فتتفق الآيتان
على هذا التأويل ولا تختلف حكمهما وتكون الآية التي تتضمن ذكر الثعبان اخبارا عن
غاية حال العصا وتكون الآية الثانية تتضمن ذكر الحال التي ولى موسى فيها هاربا وهي
حال انقلاب العصا الى خلقة الجان وان كانت بعد تلك الحال انتهت الى صورة الثعبان
فان قيل على هذا الوجه كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى فاذا هي ثعبان مبين وهذا يقتضي
انها صارت ثعبانا بعد الالقاء بلا فصل قلت ليس يفيد الآية ما ظن وانما فايدة
قوله فاذا هي الاخبار عن قرب الحال التي صارت فيها بتلك الصفة وانه لم يطل
الزمان في مصيرها كذلك فيجري هذا مجرى قوله تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من

نطفة

٨

واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
في سورة الاعراف

نطفة فاذا هو خصيم مبين مع تباعد ما بين كونه نطفة وبين كونه خصيما مبينا
وقولهم ركب فلان من منزله فاذا هو في ضيعته وسقط من اعلا الحايط فاذا
هو في الارض ونحن نعلم ان بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زمانا وانه لم
يصر اليها الا على تدريج وكذلك الهابط من الحايط وانما فايدة الكلام الاخبار عن
تقارب الزمان وانه لم يطل ولم يمتد تأويل آية اخرى قال الله تبارك وتعالى واذ
اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى
شهدنا ان تقولوا يوم القيمة انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا انما اشرك آباؤنا من
قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون وقد ظن بعض من لا بصيرة له
ولا فطنة عنده ان تأويل هذه الآية ان الله تعالى استخرج من ظهر آدم جميع ذريته
وهم في خلق الذر فقررهم بمعرفته واشهدهم على انفسهم وهذا التأويل مع ان
العقل يبطله ويحيله مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه لان الله تعالى قال واذ اخذ
ربك من بني آدم ولم يقل من آدم وقال من ظهورهم ولم يقل من ظهره وقال ذريتهم ولم
يقل ذريته ثم اخبر تعالى بانه فعل ذلك لئلا يقولوا انهم كانوا عن ذلك غافلين او
يعتذروا بشرك آبائهم وانهم نشوا على دينهم وسنتهم وهذا يقتضي ان الآية لم تتناول
ولد آدم لصلبه وانما تناولت من كان له آباء مشركون وهذا يدل على اختصاصها
ببعض ذرية آدم فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم واما شهادة العقل فمن
حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم عليه السلام فخوطبت وقررت من
ان تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف او لا تكون كذلك فان كانت
بالصفة الاولة وجب ان يذكر هولاء بعد خلقهم وانشائهم واكمال عقولهم ما كانوا
عليه في تلك الحال وما قرروا به واستشهدوا عليه لان العاقل لا ينسى ما جرى
هذا المجرى وان بعد العهد وطال الزمان ولهذا لا يجوز ان يتصرف احدنا في بلد من
البلدان وهو عاقل كامل فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وساير احواله
وليس ايضا لتخلل الموت بين الحالتين تأثير لانه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر لكان
تخلل النوم والسكر والجنون والاغما بين احوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من احوالهم
لان ساير ما عددناه مما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا الباب وليس لهم ان
يقولوا اذا جاز في الكامل العقل ان ينسى ما كان عليه في حال الطفولية جاز ما
ذكرناه وذلك انا انما اوجبنا ذكر العقلاء لما ادعوا اذا كملت عقولهم من حيث جرى

Copyright © King Saud University